الثورة على الاسلام

حرب منظمة

يشهرها الكماليون على الاسلام

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تشهر تركيا الكمالية على الأسلام حرباً لارويّة فيها ولا هوادة ؛ وقد رفع الزعماء الكماليون اليوم القناع كاملاً بعد أن رفعوا من قبل طرفاً منه ، وظهرت سياستهم نحو الاســلام فى ثوبها الحقيق ؛ ودخلت هذه الحرب المنظمة التى يشهرونها على الاســلام فى طورها الايجابى بعد أن كانت تقف عند طورها السلبى ؛ وقد اتخذت هذه الحرب منذ البداية وما زالت تتخذ ثوب « المدنية والتمدين » أعني تحرير تركيا من كل طابع ولون دينى ، وصبغها فى كل مظاهرها الرسمية والعامة بالصبغة المدنية . ولو وقفت سياسة أنقرة حقاً عند هذه الغاية لما كان ثمة مجال للريب فى صدق نياتها ؛ فان الاسلام ، كالنصرانية ، لايحول دون اصطباغ الدولة بالصبغة المدنية المحضة ؛ وأمم أوربا النصرانية التى تقلدها وتتشبه بها تركيا الجمهورية — إذا استثنينا روسيا البلشفية — لاتجد أية غضاضة فى ولائها للنصرانية ، وإن كانت أشد وأعرق «مدنية» من تركيا الجمهورية ؛ ولم تذهب أية دولة أوربية — سوى روسيا البلشفية — فى مطاردة الدين الى الحد الذى تذهب اليه حكومة أنقرة ؛ وحكومة أنقرة لا تطارد العقيدة الدينية لذاتها ، ولكنها تطارد الاســلام ، وكل مايمت اليه بنوع خاص ؛ وإذا كانت تطارد اللغة العربية وكل مظاهرها فى الكلام والكتابة ، فليس ذلك لتحرير اللغة التركية من العناصر الأجنبية فقط ، ولكن لأن اللغة العربية هى قبل كل شيء لغة القرآن ، ولغة الاسلام الأولى

وقد بدأت الثورة الكمالية على الاسلام منذ قيام الجمهورية التركية ذاتها ، أعنى منذ نحو عشرة أعوام ، وكانت فى مرحلتها الأولى تتخذ صورة الاصلاح الديني أو المدنى ، وكانت سلبية لا تسفر عن نزعتها الهدامة ؛ ولم يكن فى خطواتها الأولى مثل إلغاء الخلافة ، وحل الجماعات الدينية والصوفية ، وفرض الثياب المدنية والقبعة ، مايثير الأذهان المستنيرة ؛ فقد كانت جميعاً تتتبع جهود تركيا الجديدة فى سبيل التجديد القومى والاجتماعى بمنتهى الاعجاب والعطف ؛ ولم يك ثمة مايحمل على الاعتقاد بأن هذه النزعة الاصلاحية فى ظاهرها ستتحول غير بعيد الى نزعة إلحادية بعيدة المدى ، والى ثورة تعصب على الاسلام تقصد الى الهدم المطلق . ولكن حكومة أنقرة لم تقف فى مخاصمة الاسلام عند حد ؛ وكانت خطوات جديدة ظاهرة المغزى فى سبيل محو معالمه : إلغاء النص الذى أدرج فى دستور الجمهورية الأول بأن تركيا دولة مسلمة ، وإباحة القانون المدنى التركى الجديد زواج النصرانى من المسلمة ، ثم تحريم الأذان وتلاوة القرآن فى المساجد بالعربية ؛ ولم يك ثمة حتى فى هذه المرحلة مايثير كبير شك فى نيات حكومة أنقرة وخصومتها المضطرمة للأسلام وعقائده وذكرياته ومظاهره ؛ وكانت كلمات الاندفاع والتطرف والأغراق تتردد من جانب أولئك الذين مازالوا يحسنون الظن بأنقرة ويعطفون على جهودها وأمانيها . ولكن الكماليين لم يلبثوا أن رفعوا القناع بعد ذلك ؛ وانتدبت حكومة أنقرة لجنة لاصلاح العبادات ومظاهرها (سنة ١٩٢٨) وأذيع يومئذ أن اللجنة ترى أن تكون الصلاة فى المساجد ، كالصلاة فى الكنائس ، وأنه لابأس أن يؤدى المؤمنون صلاتهم وقوفاً أو جلوساً على المقاعد ، وأن تطربهم الموسيقى ، وأن تعزف لهم الأدعية والنصوص كما تعزف « آفى ماريا » أو « باترنوستر » ، وأن تكون صلاة المسلمين على العموم فى مظاهرها كقداس النصارى ، وكان لأذاعة هذه الاقتراحات وقع عميق فى الرأى العام التركى ذاته ؛ ولما رأت أنقرة أنها تذهب بعيداً بهذه الاقتراحات أنكرتها وكذبتها ، وحملت تبعاتها للجنة التى وضعتها ؛ أما الرأى العام الاسلامى فما كان ليدهشه شيء بعد من تصرفات الكماليين ، ومع ذلك فقد وقف مدى لحظة ذاهلاً أمام هذا الاجتراء الآثم ، يلمس النزعة الهدامة التى تملى على عصبة أنقرة سياستها نحو الاسلام وكل تراثه

ثم كانت حركة أنقرة ضد اللغة العربية والكتابة العربية ؛ واتخذت هذه الحركة كسابقاتها ثوب الاصلاح والتجديد القومى ؛ وقيل إن كتابة التركية باللاتينية بدلاً من العربية وسيلة إلى ذيوعها وتحريرها من ثوبها العتيق ، وإن اللغة التركية غنية

بأصولها وموادها القومية فهى ليست بحاجة إلى العربية تشتق منها وتستعين بها ؛ وإذا فيجب أن تحرر من جميع الألفاظ العربية الدخيلة ؛ ووضعت الفكرة موضع التنفيذ بسرعة ، فالغيت الكتابة العربية ، واستعملت الكتابة اللاتينية بقوة التشريع ؛ وسارت الحركة لنبذ الألفاظ والأصول العربية بسرعة ، واتخذت أحياناً بعض المظاهر المغرقة ؛ فقد حدث مثلاً أن أستاذاً بالجامعة التركية خطب فى المؤتمر الذى عقد منذ أشهر لهذا الغرض فنوه بأهمية استمرار التعاون والعلائق بين التركية والعربية ، فغضب الغازى مصطفى كمال — وكان من شهود المؤتمر — وغادر المؤتمر فى الحال ، وفى اليوم التالى عوقب الأستاذ بالعزل والحرمان ؛ وفى الجلسة التالية صفق الغازى لأستاذ آخر ذكر فى خطابه أن اللغة العربية لغة دخيلة ، وأن التركية أعرق أصولا من العربية ولها عليها فضل الاعارة والاشتقاق ؛ ومع ذلك فان اللغة التركية ، رغم هذه الجهود والمناظر الحماسية ، التى تعرب عن الحقد والتعصب والجهل ، بأكثر مما تعرب عن رغبة الاصلاح الحقيق ، لم تستطع أن تستغنى بنفسها ، وما زالت تستعير — طبقاً للقرارات الرسمية — من بعض اللغات الأوربيـة لتسد ما بها من نقص وثغرات . ولم تكن الحركة حركة إصلاح خالص ، بل إن لها كما قدمنا مظهراً آخر غير مظهرها الاصلاحى ؛ فاللغة العربية هى لغة القرآن ، ولغة الاسلام الأولى ؛ ولما كانت حكومة أنقرة تعمل على مطاردة الاسلام وكل مظاهره بكل ما وسعت ، فيجب أيضاً أن يختفى هذا المظهر ؛ ثم يجب أن تختفى الأسماء العربية — وهو مظهر آخر لهذه الحركة — حتى يكون الانقلاب تاماً ، وحتى لا يبدو فى أفق تركيا الكمالية ، بعض الزمن ما يثير ذكرى العربية والاسلام

وقد حملت الينا البرقيات الأخيرة نبأ جديداً ، هو أن حكومة أنقرة قررت أن تعمل لأزالة منارات المساجد ، وأنها ستبدأ بازالة المنارات العتيقة وتقيم فى مساجدها مصانع ، فاذا صح هذا النبأ فانه يكون دليلاً جديداً على أن هذه الجهود المتوالية التى تبذلها حكومة أنقرة لمحو معالم الاسـلام فى سائر مظاهره الشخصية والعامة إنما هى سياسة مقررة متصلة الحلقات

* * *

والآن لنحاول أن نتعرف أسباب هذه الحرب المضطرمة التى يشهرها الكماليون على الاسلام ؛ ولنلاحظ أولاً أن تركيا الجمهورية تحذو فى تلك الحرب اللادينية المنظمة حذو روسيا البلشفية ، وهى الدولة الغربية الوحيدة التى تشهر الحرب على النصرانية وتطارد كل مظاهرها . ولم يقع هذا الشبه عرضاً بين الدولتين اللادينيتين ؛ ولكنه يقوم على نفس المبادئ ونفس الروح الثورية واللادينية المشتركة ؛ وقد كانت روسيا البلشفية أكبر عضد للكماليين فى حرب التحرير التركية وفى العمل على بعث تركيا المحتضرة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن تركيا الجمهورية مدينة بحياتها للبلاشفة . ولم يبذل البلاشفة هذا العون للكماليين حباً بتركيا ، ولكنه كان قطعة من برنامجهم فى محاربة الاستعمار البريطانى ، وقد كان غزو اليونان لتركيا مشروعاً بريطانياً تعاونه بريطانيا وتحميه ، وكان عون البلاشفة للكماليين بكل الوسائل المادية والمعنوية منـذ قيام الحرب التركية اليونانية حتى عقد معاهدة لوزان فصلاً من فصول الصراع بين البلاشفة والاستعمار البريطانى ؛ وكان طبيعياً أن يكون لوحى موسكو ونفوذها أكبر الأثر فى توجيه حكومة أنقرة ، وأن توثق المصالح المشتركة بين روسيا البلشفية وتركيا الكمالية ؛ وأشد ما يبدو وحى موسكو فى ناحيتين : سياسة تركيا الخارجية ، فهى قطعة لا تتجزأ من برنامج السياسة البلشفية ، تردد فيها تركيا خطوات موسكو فى كل شئ : فى السياسة الشرقية والسياسة الأوربية ، وفى مخاصمة عصبة الأمم ثم الالتحاق بها (على أثر التحاق روسيا) ؛ وروسيا تشد بأزر تركيا فى كل مظاهرة دولية ؛ وتركيا تؤيد روسيا فى مواقفها نحو الدول الغربية ، وتركيا تعرف أنها مدينة بحياتها لروسيا ، وأن هذه الحياة تتوقف على ارادة روسيا ، فهى لا تستطيع أن تحيد عن برنامج السياسة الروسية ؛ وثانياً — فى الناحية الثورية ، فحكومة أنقرة ما زالت حكومة ثورية على مثل حكومة موسكو ، وهى تحذو حذوها فى تطبيق مبادئ الهدم والاباحة الى أبعد الحدود ؛ واذا استثنينا الناحية الاقتصادية ، أعنى تطبيق الفكرة الشيوعية التى يرى الكماليون بحق أن تركيا ليست ميداناً صالحاً لتجربتها ، كانت الثورة الكمالية الاجتماعية والدينية صورة من الثورة البلشفية فى هـذه الميادين ؛ وكما أن النزعة

الالحادية تسود الثورة البلشفية ، فكذلك الثورة الكمالية تسودها هذه النزعة ؛ واذاً فان هـذا الألحاد الذى يطبع كل تصرفات الكماليين ، وهـذه الاباحة التى يغرقون فيها ، وهذه الحرب اللادينية المستعرة التى يشهرونها ترجع فى كثير من وجوهها الى غرس أساتذتهم ومدربيهم سادة موسكو ؛ على أن الفكرة الثورية والالحادية ليست كل شىء فى سياسة الكماليين ، فهنالك بواعث أخرى تحفزهم الى هذه البغضاء المتأججة نحو الاسلام . ذلك أن الكماليين يرون أن الاسلام كان سبباً فى كل ما أصاب تركيا القديمة من المحن التى أودت بسلطانها وقوتها ، وأن صفتها الإسلامية هى التى أثارت الدول الغربية ضدها خلال العصور المختلفة وجمعت كلمتها على محاربتها ومقاومتها ، وأنها لولا هـذه الخصومة التى أثارها الاسلام فى نفوس الأمم الغربية لبقيت دولة قوية ولم تبدد قواها فى حروب ومعارك خالدة ؛ ولهذا يمعن الكماليون فى ثورتهم ضد الاسلام ويزعمون أن تركيا تستطيع بذلك أن تنزع تاريخها وماضيها وصفتها الأسيوية ، وأن تدخل بذلك فى عداد الدول الغربية

وقد كان الاسلام حقاً من العوامل التى أثارت أوربا النصرانية وجمعت كلمتها ضد الدولة العثمانية فى أحيان كثيرة ، ولـكنه لم يكن بهذا الاعتبار مسئولاً عما أصاب الدولة العثمانية من المحن وضروب الانحلال والتفكك بقدرما تسئل عنه السياسة الغاشمة والأساليب الهمجية المخربة التى سارت عليها هذه الدولة طوال عصور تاريخها ، وعجز الترك المطبق عن أن يكونوا عاملاً من عوامل الأنشاء فى صرح الحضارة الحديثة . هذا ، ومن جهة أخرى ، فقـد لقى الاسلام على يد الدولة العثمانية الذاهبة أعظم نـكبة نزلت به فى العصر الحديث ، ولقيت الحضارة الاسلامية الزاهرة فى مصر والأمم العربية مصرعها على يد هذا الغزو الوندلى الذى لبثت تزرح فى أغلاله وظلماته مدى قرون أربعـة ؛ ولم تـكن الفتوحات التركية سواء فى الشرق أو الغرب سوى فورات مخربة تحمل وراءها الويل والدمار أينما حلت ؛ وعلى ضوء هذه الحقائق وحدها يجب أن يرجع الكماليون عوامل انحلال تركيا الذاهبة

* * *

ومهما يكن من أمر البواعث التى تحفز الكماليين الى هذه الخصومة المضطرمة نحو الاسلام ، فان الاسلام أقوى وأرسخ من أن يتأثر بمثل هذه الفورات العصبية الطارئة ؛ وقد صمد الاسلام وما زال يصمد لخصومة الغرب كله مع ما يحشده الغرب لغزوه من العوامل والوسائل الخطرة . ذلك أن الاسلام قوى بعقائده ومبادئه وخلاله المستنيرة ، قوىّ بتسامحه الخالد ، قوى بتراثه المجيد . ولن يضير الاسلام أن تسقط من عداده تركيا الكمالية ؛ واذا كان الاسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة ، فـكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة ؟ على أن هناك حقيقة يجب أن يذكرها الكماليون ، وهو أن تركيا عاشت فى العصر الأخير على تراث الاسلام ؛ وقد كان نفوذ الاسلام المعنوى عاملاً قوياً فى بعثها الجديد ، وفى تطور السياسة الأوربية نحوها ، وإقالتها من الفناء الذى كان مقضياً به عليها . أما اليوم فان العالم الاسلامى الذى كان بالأمس يحبو تركيا بعطفه وتأييده المعنوى — والمادى فى أحيان كثيرة — لا يهمه اليوم شىء من أمر تركيا الكمالية ومصايرها ، ومن المحقق أنه سيقف وقفة المتفرج يوم تدلهم الخطوب ، وتعود المعارك القديمة الى الاضطرام

محمد عبد الله عنان
المحامى

يصدر قريباً

فى أصول الأدب

محاضرات ومقالات فى الأدب العربى

بقلم

احمد حسن الزيات